المقـــدمة

جاءت أمة الإسلام فكانت خير أمة أخرجت للناس، تؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فكانت أول أمة جمعت بين قوة الإيمان وحب العلم، فنشرت عقيدة ، وأقامت حضارة، أضاءت بها الدنيا في وقت كان فيه العالم في ظلام وبؤس وحروب طاحنة.

ولاريب أن أمة الإسلام آمنت بالعلم ابتداء من الخليفة إلى أصغر مواطن، فأصبح المسلمون جميعاً طلاب علم. فقد كان العلم عندهم أعظم قدراً وأرفع شأناً من كل مال وجاه. وكان العلماء المسلمون أصحاب المنزلة العظيمة عند الخلفاء والولاة.

في هذه البيئة الصالحة انطلق العلماء في البحث العلمي، فنشأت بذلك نهضة علمية في كل فروع العلم والمعرفة، فتقدمت العلوم وارتقت، وبرز علماء أفذاذ من المسلمين في شتى العلوم؛ كابن سينا في الطب، والبيروني في الفلك، والحسن بن الهيثم في علم الفيزياء، وجابر بن حيان في الكيمياء، وغيرهم من العلماء الذين سطعوا في سماء الحضارة الإسلامية وكان لهم أثر كبير في الغرب الأوربي.

وهكذا استطاع المسلمون الأوائل بقوة إيمانهم وعقيدتهم أن ينشروا الدين الإسلامي، فكونوا دولة إسلامية مترامية تستظل بظل الإسلام، وتتمتع بعدل الإسلام ومساواته بين الأجناس، ومن هنا تمكن علماء المسلمين أن يرفعوا لواء العلم فأقاموا حضارة إسلامية شامخة على أساس

من العلم والمعرفة والتقوى والعدل في وقت كانت فيه أوربا تعيش في ظلام دامس وصراع مستمر وجهل مطبق. فقد كان العرب المسلمون أهل أصالة وعلم قادوا الإنسانية نحو المجد والقوة بفضل العلماء العرب الذين حملوا المشعل وأضاءوا دياجير الظلام والجهل. كما كانت اللغة العربية هي اللغة العلمية، وكانت كذلك اللغة الدولية في هذا الميدان العلمي. ولذلك نقل الغرب الأوربي العلوم عن اللغة العربية بعد ترجمتها إلى اللغة اللاتينية.

ومهما يكن من أمر، فإن الحضارة الإسلامية قد قامت على أساس التسامح الديني وعدم التعصب، إذ كان الخلفاء والولاة المسلمون يقربون العلماء والمفكرين من كل الأجناس والمِلَلْ، من غير تمييز بين دين ودين ومذهب ومذهب، وهذا التسامح الديني هو الذي ساعد على جمع مظاهر الحضارات القديمة لتكون بداية للجانب المادي من الحضارة الإسلامية التي انتشرت في بيئات جغرافية متنوعة تشمل أجناساً مختلفة مما أعطاها موارد ومصادر للرقي المادي والحضاري.

والله ولي التوفيق.

د / إسماعيل أحمد ياغي

الرياض صفر ١٤١٨ هـ / يونيو ١٩٩٧

تاريخ الدولة الإسلامية

بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة في السنة الثالثة عشرة بعد البعثة، تطورت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الدولة الإسلامية، إذ تأسست دولة على رأسها النبي ﷺ الذي أرسى قواعدها حسب تعاليم الإسلام الحنيف ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾.

وفي أول الأمر كان النبي ﷺ يتولى تسيير جميع شؤون هذه الدولة الناشئة، ولكنه لم يلبث بعد أن اتسعت الرقعة وانتشر الإسلام في أنحاء جزيرة العرب أن أناب عنه في الإدارة بعض الصحابة، فعيَّن القادة والولاة والقضاة والجباة وغيرهم من الموظفين الذين توزعت عليهم شؤون الحكم والإدارة تحت رئاسته ﷺ. وكان هؤلاء يمضون أمورهم ويتصرفون في اختصاصاتهم حسب ما جاء به القرآن الكريم وما أمر به النبي ﷺ مقتدين بسنته، وهكذا بدأ تأسيس الوظائف المختلفة في الدولة الإسلامية.

وبعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى خلفه في حكم الدولة الإسلامية أبو بكر الصديق بعد أن بايعه الصحابة على أن يخلف رسول الله في حكمهم وتولي أمورهم، ومن ثم نشأ نظام الخلافة في الإسلام. ورفض بعض العرب أول الأمر الإذعان لولاية الصديق أو الخضوع لنظام الدولة والانضواء تحت لوائها وامتنعوا عن أداء الزكاة، كما ارتد بعضهم عن الإسلام، غير أن أبا بكر استطاع أن يرغمهم على الإذعان، ومن ثم ساد حكم الخليفة على المسلمين كلهم[1].

(١) د. حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٩٢، ص٢٤.

وأوصى أبو بكر قبل وفاته بالخلافة لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي اتسعت الدولة الإسلامية في عهده، فشملت بالإضافة إلى بلاد العرب، الشام، ومصر والعراق وإيران، ثم ولي الخلافة عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب الذي نقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة، وبموت علي بن أبي طالب سنة ٤١هـ انتهى عهد الخلفاء الراشدين، وفيه كانت أنظمة الدولة ووظائفها تقوم بصفة خاصة على أساس روحي أقرب إلى اليسر، وبعيدة عن المظاهر والتكلف(١).

ثم بدأ عصر الدولة الأموية على يد مؤسسها معاوية بن أبي سفيان واستمر من سنة ٤١ إلى سنة ١٣٢ وكانت دمشق عاصمة لها. وفي عهد هذه الأسرة زاد اتساع الدولة شرقاً وغرباً فامتدت إلى السند شرقاً وإلى إسبانيا غرباً. كما استقرت أمور الحكم، وساد هذه الدولة الواسعة الأرجاء طابع العروبة وانتشر فيها الإسلام، وأخذت نظمها ووظائفها في النمو والتزايد تدريجاً، وبدأت المظاهر الحضارية تتبلور على أساس عربي إسلامي(٢).

وبالقضاء على مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ انتهت الدولة الأموية، وقامت في أعقابها الدولة العباسية، نسبة إلى العباس بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ. ومن ثم زادت في الخلافة صفتها الدينية، وكان أول خلفائها أبا العباس السفاح، ثم خلفه أخوه أبو جعفر المنصور الذي يعتبره بعض

(١) الشيخ محمد الخضري، تاريخ الأمم والممالك الإسلامية، جـ١، القاهرة، ١٩٧ .

(٢) الشيخ محمد الخضري، تاريخ الأمم والممالك الإسلامية، جـ١، القاهرة، ١٩٧٠ .

المؤرخين المؤسس الفعلي للإدارة العباسية، وأنشأ أبو جعفر مدينة بغداد واتخذها عاصمة للخلافة العباسية.

وورث العباسيون أنظمة الحكم والإدارة الأموية ثم طوروها إلى درجة كبيرة، وعني خلفاؤهم بتنظيم الدولة، وقد بدأ التنظيم في عهد أبي جعفر وازداد كثيراً في عهد الرشيد.

ونظراً لاعتماد العباسيين في قيام دولتهم على الفرس فقد تأثروا في نظم الحكم والإدارة وأساليب الحياة بالتقاليد الفارسية، وفي الوقت نفسه زادت استفادتهم من الثقافات والحضارات الأجنبية، وبذلك تمت الحضارة الإسلامية وازدهرت مطعمة بثقافات أجنبية، ولكن في إطار الشريعة الإسلامية التي بلغت في العصر العباسي مستوى رفيعاً من حيث الشرح والتقنين.

وأثناء الخلافة العباسية منيت الدولة بالانقسام، ففي عهد أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين، انفصلت الأندلس عن الحكم العباسي حين أسسن فيها عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام من بني أمية دولة استقل بحكمها وأورثها أسرته من بعده، وهذه الدولة اصطلح على تسميتها بالدولة الأموية الغربية التي نافست الدولة العباسية في رعاية الحضارة الإسلامية[1].

ولم يلبث أن توالت الانقسامات في الدولة العباسية، فمنذ أواخر القرن الثاني الهجري أخذت تنشأ في بعض ولاياتها دول مستقلة،

(١) الشيخ محمد الخضري، تاريخ الأمم والممالك الإسلامية، جـ٢، القاهرة، ١٩٧٥.

ازدهرت في بعضها الحضارة الإسلامية، مثل الدولة السامانية في خراسان والدولة الطولونية ثم الإخشيديه في مصر.

وفي القرن الثالث الهجري أخذ الخلفاء العباسيون يستكثرون من استخدام الغلمان الأتراك حتى استفحل نفوذهم واستبدوا بالسلطان نتيجة ضعف الخلفاء وعجزهم، وكان من نتيجة ذلك أن ضعفت الإدارة المركزية واستطاع بعض الولاة أن يستقلوا بولاياتهم استقلالاً فعلياً مع الارتباط بالإدارة المركزية ارتباطاً اسمياً، كما ظهرت وظيفة جديدة هي وظيفة أمير الأمراء الذي استأثر بالسلطان واستبد بالحكم في مقر الخلافة، وكان ابن رائق هو أول من لقب بلقب أمير الأمراء وكان ذلك في سنة ٣٢٤هـ[١].

وبعد ذلك استبد بالخلافة العباسية أسرة من الديلم هي أسرة بني بويه، وباستيلاء بني بويه على السلطة ازدادت التأثيرات الفارسية في الحضارة الإسلامية، وقد قلل بنو بويه من نفوذ الخلفاء العباسيين حتى إنه لم يبق لهم من الخلافة إلا مظاهرها. ونظراً لتشيع بني بويه فقد حاولوا صبغ دولتهم بالطابع الشيعي مما أدى إلى احتدام الصراع بين الشيعة وأهل السنة.

وفي عهد بني بوية بدأ نظام الإقطاع في الدولة الإسلامية، إذ أخذ معز الدولة بعد أن استولى على بغداد، يقطع قواده ومواليه القرى كأرزاق

(١) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ط، ص٣٥١-٣٥٢.

عوضاً عن المرتبات النقدية، واستقر هذا النظام بعد ذلك في عصر السلاجقة.

وكان تاريخ بني بويه سلسلة من المنازعات الأسرية التي وصلت في كثير من الأحيان حد الحروب وما يتبعها من سجن أو قتل لبعض أفراد الأسرة على يد البعض الآخر.

وكان هذا التنافس بين أفراد أسرة بني بويه من أهم عوامل ضعفها خاصة والدولة العباسية عامة، ووجد في عهد بني بويه دولتان إسلاميتان أخريان اتخذتا ألقاب الخلافة ونازعتا الخلافة العباسية الزعامة على العالم الإسلامي وهددتا نفوذها وهما: الدولة الأموية في الأندلس، والدولة الفاطمية في شمال إفريقية ثم مصر[1].

وكان الصراع على أشده بصفة خاصة بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية، إذ بالإضافة إلى القرب المباشر بين العباسيين والفاطميين اتخذ الصراع بينهما مظهراً عقائدياً بالإضافة إلى الجوانب الحربية والسياسية. واستطاع الخلفاء الفاطميون في هذا العصر أن يستولوا على مصر حيث أسسوا مدينة القاهرة التي اتخذوها عاصمة لهم، وكانت إحدى المراكز المزدهرة للحضارة الإسلامية، كما انتشر دعاة الفاطميين في سائر أنحاء العالم الإسلامي ولاسيما إيران[1].

(١) د. حسن الباشا، المرجع السابق، ص٢٧.

ولم يكن الخطر الفاطمي هو الوحيد الذي يهدد بني بويه، بل إنهم تعرضوا لمناوأة شديدة في الدولة العباسية نفسها، وذلك من قبل الولاة والأمراء الذين أسسوا أسراً حاكمة تتمتع باستقلال فعلي عن الخلافة العباسية. ومن أبرزها الأسرة الغزنوية والسلاجقة الذين سيطروا على غرب آسيا، وهم إحدى القبائل التركية السنية المتحمسة للإسلام.

وإزاء ضعف بني بويه وتشيعهم تقدم السلاجقة للاستيلاء على بغداد، واستطاع أحدهم طغرل بك أن يستولي عليها، وأن يثبت حكم أسرة السلاجقة في الدولة العباسية. وقد امتد نفوذ السلاجقة على معظم آسيا الصغرى بعد انتصارهم على الأرمن والبيزنطيين، كما ضموا إليهم الشام وبلاد العرب وفارس والعراق. وفي أول الأمر خضعت الأسرة لسلطان واحد منهم، ثم لخلفائه من بعده وهم السلاجقة العظام، ثم توزع السلاجقة إلى عدد من الأسر الفرعية اقتسمت فيما بينها أقطار الدولة العباسية وما أضافوه إليه من فتوحات، وأهم هذه الأسر سلاجقة العراق، وسلاجقة كرمان، وسلاجقة الشام، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى[1].

وباستيلاء السلاجقة على السلطة في الدولة العباسية، دخلت الدولة في طور جديد من أطوارها وذلك بفضل الأنظمة الجديدة التي ظهرت على أيديهم والتي صارت أساس كثير من التطورات الاجتماعية في

(١) د. حسن الباشا، المرجع السابق، ص٢٧.

العالم الإسلامي فيما بعد، ولقد قيض الله للدولة السلجوقية في أوائل عهدها شخصية فذة كان لها دور كبير في توجيه سياسة هذه الدولة ووضع أنظمتها والإشراف على تنفيذها: هو الوزير نظام الملك[١].

واعتبر السلاجقة أنفسهم أبطال النهضة الفارسية فشجعوا الفرس على إحياء اللغة الفارسية واستخدامها في الكتابة والتأليف. وخلف السلاجقة في حكم الولايات العباسية أتباع لهم اقتسموها بينهم وكون بعضهم أسراً عرفت عند المؤرخين باسم الأتابكة نسبة إلى أتابك، وكانت مهمة الأتابك الوصاية على أولاد السلطان وتربيتهم[٢].

وكان الأتابك يصحب الأمير حين توليه إحدى الولايات ويشترك معه في حكمها، وربما حرص السلطان نفسه على ذلك ليكون عيناً له على الأمير ويحول بينه وبين الاستقلال عن السلطان أو الثورة عليه. واتسع نظام الأتابكة في الدولة السلجوقية حتى كاد يصبح وجود الأمير السلجوقي والأتابك معاً على رأس الولاية من التقاليد الواجبة.

وكان إذا ازاد نفوذ أحد الحكام من غير الأسرة السلجوقية حرص على ضم أحد الأمراء السلاجقة إليه حتى يصير أتابكه.

وقد تطور الأمر إلى أن صار على رأس الولايات السلجوقية ولاة من الأتابكة لا يدينون للسلاطين السلاجقة إلا بطاعة اسمية، وفي الوقت نفسه يتحينون الفرصة المناسبة للاستقلال بحكم ولاياتهم بل والاستيلاء

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ط، ص١١٣.

(٢) نفس المرجع.

على غيرها والتمكين لأسرهم، ومن ثم انقسمت دولة السلاجقة إلى دويلات يحكمها أسر من الأتابكة توارثت السلطة في كثير منها: نذكر منهم بني بوري في دمشق، وبني زنكي في الموصل والشام وسنجار والجزيرة، وبني سبكتكين في أربيل، وبني إيلدكز في أذربيجان وأتابكة يزد وبني سلغر في فارس وبني فضلويه في شوانكاره وبني هزراستان في لورستان الكبرى وبني خورشيد في لورستان الصغرى.

هذا وقد حمل بعض أسر الأتابكة ومن خلفهم من الأيوبيين ثم المماليك عبء محاربة الصليبيين، فكان قد تم طرد الصليبيين على يد عماد الدين زنكي أتابك الموصل من إمارة الرها، ثم سار على نهجة ابنه نور الدين محمود الذي كرس جهوده لحربهم في الشام، وخلفه أحد قواده صلاح الدين الأيوبي الذي طردهم من القدس[1].

وهكذا استطاع المسلمون طرد الصليبيين من القدس، ثم طرد آخر فلولهم على يد خليل بن قلاوون أحد سلاطين المماليك في مصر.

ومن الدول التي خلفت السلاجقة في شرق العالم الإسلامي دولة خوارز مشاه، وقد استطاعت في سنة ٥٩٢هـ، أن تنهي حكم السلاجقة في إيران ثم أخذ يمتد نفوذها ما بين الضفة اليمنى لنهر سيحون وممرات الجبال الواقعة بين إيران ووادي دجلة وسيطرت على خوارزهم وخرسان وبخارى وسمرقند وأرتار عاصمة الخطا، بل اعترف بسيادتها أحياناً في

(١) أبو شامة، الروختين، جـ١، ص١٠٠.

عُمان، وأصبحت خوارزم دولة في الدرجة الأولى من حيث القوة والثراء والمدنية، وصارت عاصمتها من أكثر المدن ازدهاراً، وصار لها علاقات تجارية مع الشرق والغرب.

ثم حدث تنافس بين خوارزمشاه والخليفة العباسي على السلطة والاستئثار بالسيادة السياسية في عهد الناصر كان من جرائه أن حاول خوارزمشاه القيام بحملة على بغداد ولم يثنه عن ذلك إلا ما ابتلي به من غزو المغول[١].

وبعد أن قضى المغول على دولة خوارزمشاه وجهوا عنايتهم لدخول بغداد والقضاء على الخلافة العباسية نفسها. وفي ذلك الوقت كانت الخلافة العباسية قد تدهور مركزها، تدهوراً كبيراً في نظر العالم الإسلامي وذلك لتقاعسها عن محاربة الصليبيين في الغرب وعن صد المغول في الشرق، ومن جهة أخرى كان الخلفاء الأواخر يفتقرون إلى العزيمة والنشاط مما أدى إلى أن انحصر حكمهم في بغداد، كما قامت الفتنة بين أهل السنة والشيعة في بغداد وقلّت الأموال واضطرب الأمن[٢].

وهكذا وقعت بغداد فريسة سهلة أمام المغول بقيادة هولاكو في عام ٦٥٦هـ الذي قضى على المستعصم آخر خلفاء بني العباس، وبذلك قضي على الخلافة العباسية في بغداد.

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، جـ٤، القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٢م، ص٣٤٥.

(٢) الشيخ محمد الخضري، تاريخ الأمم والممالك الإسلامية، جـ٢، القاهرة، ١٩٧٥م.

وصحب غزو المغول للعالم الإسلامي دمار وتخريب وقتل يتمثل في حرق المدن، وذبح الناس صغاراً وكباراً، والتمثيل بالأعداء، والنهب والسلب.

وحاق بالعراق من غزو المغول خسارة فادحة بقيت آثارها ربما إلى وقتنا الحاضر، وبقتل المستعصم انتهت من بغداد الخلافة العباسية التي كانت تمثل تقليداً عريقاً يرجع إلى صدر الإسلام، كما فقدت بغداد أهميتها كعاصمة للعالم الإسلامي.

ومن جهة أخرى فإن الوضع الذي آلت إليه بلاد العراق بعد غزو المغول حولها إلى مناطق حدود بين قوتين متصارعتين في إيران ومصر، مما أدى إلى تعرضها للأعمال الحربية من الجانبين، وكان من جراء ذلك أن أصابها كثير من التخريب والإهمال في الإدارة وأعمال الري والعناية بالأراضي، وإهمال طرق العراق التجارية لحساب طرق التجارة المارة بإيران، وآسيا الصغرى بالشمال، وبمصر والبحر الأحمر في الجنوب، وأثر ذلك على حضارة العراق ومركزه الفكري والثقافي، إذ قل فيه بعد غزو المغول الإنتاج الفكري والفني الأصيل، على عكس ما كان عليه الحال قبل ذلك حين كان العراق مركز الإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي كله، بل وفي خارجه أيضاً، وكان في الدرجة الأولى من حيث خصوبة الإنتاج الفكري والفني وقيمته.

وعلى عكس ما أصاب العراق من تدهور وتأخر نعمت مصر بعصر من الازدهار والتقدم، فبعد أن دحرت المغول وطردتهم من الشام استطاعت أن تحافظ على تيارها الحضاري مستمراً دون انقطاع، ونجحت في تصفية الفلول الصليبية المتبقية في الشام، كما عملت على نقل الخلافة العباسية

إلى القاهرة مما زاد في نفوذها الروحي بالإضافة إلى قوتها السياسية والحربية، ومن ثم حظيت مصر في عصر المماليك برخاء مادي وازدهار حضاري وثراء في مجال الفكر والفن، أسهم فيه الفنانون والعلماء الذين هاجروا إلى مصر أمام الغزو المغولي.

أما إيران فقد صارت مركز الدولة الإيلخانية المغولية التي استطاعت إيران في ظلها أن تستأنف تقدمها الحضاري، ولم يلبث حكامها من المغول أن اعتنقوا الإسلام في عهد السلطان غازان، وتمتعت إيران بكثير من الاستقرار والرخاء، كان من نتيجته ازدهارها الفني والثقافي، وخلف الإيلخانيون في ريان التيموريون، ثم تبعهم الصفويون، وكانت إيران في عهد هؤلاء جميعاً مركزاً مزدهراً من مراكز الحضارة الإسلامية[١].

هذا وقد امتد حكم المسلمين إلى الهند حيث سيطر عليها المغول المسلمون إلى أن تمكن منهم الاستعمار البريطاني، وكان لقدوم المغول للعالم الإسلامي وما أعقبه من أحداث تأثير غير مباشر على وضع الأتراك في آسيا الصغرى، ذلك أنه في أثناء الغزو المغولي هاجر كثير من الترك والمغول إلى آسيا الصغرى، وأخذوا يشتركون في الحرب ضد البيزنطيين، ونجحوا في تأسيس إمارات توارثوا الحكم فيها، وخضعت إحدى هذه الإمارات بعد ذلك بقبيلة تركية هي التي صارت تعرف باسم الأتراك العثمانيين الذين قدر لهم أن يقضوا على الدولة البيزنطية، وأن يحكموا النصف الغربي من العالم الإسلامي وأن يستولوا على جزء كبير من شرق أوربا[٢].

---

(١) د. حسن الباشا، المرجع السابق، ص٣١.

(٢) د. عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها جـ١، القاهرة ١٩٨٠، ص٦٠-٦٢.

أما في الأندلس فقد أخذ نفوذ المسلمين في التقلص لحساب دويلات النصارى في إسبانيا إلى أن انحصر في غرناطة التي قضي عليها، وبذلك انتهى سلطان العرب في الأندلس في سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م[١].

(١) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، جـ٣، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

obeikandl.com